(٤)

الحكام المنافقون

- الحكام المرتدون مفروغ منهم
- الحكام المنافقون هم المشكلة
- موقفهم من محكمات القرآن

الحكام المنافقون

ليس للحل الإسلامى مشكلة مع الشعوب الإسلامية، فالشعوب – فى مجموعها – مع هذا الحل قلبا وقالبا، وهى تتنادى فى سائر الأقطار بوجوب تحكيم الشريعة الإسلامية.

وطالما نادينا – بل تحدينا – العلمانيين أن يستفتوا هذه الشعوب، استفتاء حرا نزيها، حول القضية المصيرية: أيحكمون بالشريعة الإسلامية أم بالقوانين الوضعية؟ أيسيرون وراء شرع محمد أم قانون نابليون أم منهاج ماركس؟

وأنا موقن بأن الأغلبية العظمى لن تبيع محمدا ﷺ بأحد من الخلق، لا نابليون ولا ماركس ولا غيرهما.

مشكلة الحل الإسلامى ليست مع الشعوب، ولكن مع الحكام، الذين فُرِضوا – أو أكثرهم – على الأمة، فى هذا الزمن الأخير.

● **الحكام المرتدون مفروغ منهم:**

ولن أتحدث هنا عن الحكام الذين انسلخوا من أمتهم كما تنسلخ الشاة من جلدها، ومرقوا من دينهم كما يمرق السهم من الرمية. وأصبحوا فى واد وجمهور أمتهم فى واد، فهزأوا بالعقيدة، وسخروا من الشريعة، واستخفوا بالقيم، ولم يرضوا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، وبالقرآن منهاجا، فكفروا كفرا بواحا، وارتدوا ردة صراحا، ولم يعرفوا صلاة ولا صياما، ولا عبادة لله جل شأنه.

عرفنا ذلك فى الشيوعيين الأقحاح، وفى العلمانيين الصرحاء، الذين اعتبروا الدين معوقا للأمة، أو مخدرا للشعوب. وقامت فلسفتهم جهارا على تجفيف منابع التدين فى حياة المجتمع، بحذف كل ما يغرس التدين الحق وينميه فى الفكر والشعور والسلوك، من التعليم ومن الإعلام، ومن الثقافة. وظهر ذلك فى حياة وتصريحات بعض الحكام فى تركيا وإندونيسيا وتونس وغيرها، فى بعض الأوقات.

وأمثال هؤلاء لن نتحدث عنهم هنا، لأن وعاءهم مكشوف، وموقفهم معروف، وشعوبهم تكرههم وتلفظهم، وتتمنى يوم الخلاص منهم. وقد انتهى بعضهم فعلا من حياة شعبه، وبعضهم لا يزال جاثما على أنفاسه.

هؤلاء قد حصحص فيهم الحق، وتبين الصبح لذى عينين، وفرغت الأمة منهم.

● الحكام المنافقون هم المشكلة:

إنما الذى يستحق الحديث هنا هم الصنف الآخر من الحكام، الذين يظهرون بوجهين، ويتكلمون بلسانين، ويرقصون على الحبلين، ويؤيدون الفريقين المتنازعين، فهم كما قال الشاعر:

يوما يمان إذا ما كنت ذا يمن وإن لقيت معدّيا فعدنانى!

هؤلاء يدعون الإسلام، ويعلنون أنهم مسلمون، وقد تراهم فى المسجد مصلين، أو فى رمضان صائمين، أو فى مكة حجاجا أو معتمرين.

ولكن مشكلتهم الجوهرية مع الشريعة وأحكامها، فهم يقبلون الإسلام عقيدة، ولا يرضونه شريعة، يؤمنون به دعوة، ولا يؤمنون به دولة، يريدونه علاقة بين المرء وربه، لا علاقة بين الإنسان والإنسان، فردا أو جماعة. أعنى: أنهم يريدون حبسه فى ضمير صاحبه، فإن كان لا بد له أن يخرج من حنايا صدره، فإلى المسجد لا إلى الحياة.

فلا علاقة للدين عندهم بالسياسة ولا بالاقتصاد ولا بالثقافة ولا بالاجتماع، فماذا بقى للدين إذن؟

ربما جاز ذلك فى دين كالنصرانية التى يقول إنجيلها: دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله! فأجاز أن تنقسم الحياة قسمين، بين الله وقيصر، أو بين الدين والدولة، أو بين السلطة الدينية (الكنيسة) والسلطة المدنية (الحكومة).

أما الإسلام فيقول: الحياة كلها لله، قيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد، ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ**﴾

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

ويقـرر القـرآن الكريم فى آيات كـثـيـرة : أن لله من فى الســمـاوات ومن فى الأرض، وما فى السماوات وما فى الأرض، مِلكا ومُلكا .

فـمـاذا يصنع هؤلاء الحكام - إن كـانوا مـسلمين حـقـا - أمـام النصـوص المحْكمـة، الآمرة الناهيـة، من كـتـاب الله، ومن سنة رسول الله، التى تـشـمـل الحـيـاة كلهـا، والتى توجه الإنسـان وتشرع له، من المهـد إلى اللحد، وتصحبه فى رحلة حياته منذ كان جنينا إلى أن يموت .

هناك أحكام تتعلق به جنينا ومولودا ورضيعا وفطيما وصبيا ويافعا وشابا وكهلا وشيخا ومحتضرا وميتا .

وهناك أحكام تتعلق بالأسرة وبالمجتمع، وبالحكومة، وبالاقتصاد وبالسياسة، وبالعلاقات الدولية .

وهذا كله يدلنا على أن الإسلام رسالة شاملة، جاء كتابها تبيانا لكل شئ من رب كل شئ، كما قال تعالى : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾ [النحل : ٨٩] وقال تعالى في ختام سورة يوسف : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [يوسف : ١١١] .

وهذا متسق مع فطرة الحياة نفسها، فهى فى الحقيقة وحدة لا تتجزأ، لا ينفصل فيها دين عن دنيا، ولا عبادة عن معاملة، ولا سياسة عن اقتصاد، ولا ثقافة عن سياسة، ولا أخلاق عن ذلك كله .

ولهذا رأينا (الأيديولوجيات) الوضعية نفسها تجتهد أن تقبض على أزمة المجتمع كله، وتوجه شؤون الحياة كلها، فإنها يؤثر بعضها فى بعض .

حتى الكنيسة نفسها التى قال لها إنجيلها : دع ما لقيصر لقيصر، لم تدع لقيصر ما له، بل عملت فى عصور شتى أن تكون هى القيصر، فإن لم تستطع نصبت هى القيصر، ووجهت القيصر إلى ما تريد .

لماذا يراد للإسلام وحده، أن ينحصر فى الجانب الروحى، على عكس تعاليمه، وعكس تاريخه كله؟ والإسلام ليس له سلطة دينية متمكنة - كالمسيحية - فإذا زالت عنه السلطة التى تجمع بين الدين والسياسة، أو التى تخلف رسول الله ﷺ فى إقامة الدين وسياسة الدنيا به - كانت النتيجة أن تنزع السلطة كلها من الإسلام، ويبقى معزولا عن الحياة ولا شئ بيديه.

والأهم من ذلك كله: أن الإسلام يرفض أن يعزل عن الحياة، وأن تسلب سلطته فى التشريع والتوجيه والقيادة.

يرفض الإسلام أن يؤخذ عقيدة ولا يؤخذ شريعة، وأن يؤخذ عبادة ولا يؤخذ معاملة، وأن يؤخذ وصايا أخلاقية، ولا يؤخذ أحكاما عملية.

إنه يعتبر هذا (التبعيض) أو (التجزئة) لتعاليمه وأحكامه (كفرا) به، ومروقا منه، ويتوعد من فعل ذلك بأشد العذاب. وهو ما عاب عليه بنى إسرائيل حين أخذوا بعض دينهم وتركوا بعضا، فقرعهم الله سبحانه بقوله: ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٥، ٨٦].

● موقف الحكام من هذه الآيات القرآنية:

ونقول للحكام الذين يقولون: إنهم مسلمون، وإنهم يعتزون بالإسلام، وإنهم يصلون ويصومون، ولكنهم لا يطبقون كل شريعة الإسلام فى كل شؤون الحياة المختلفة، بل يأخذون منها ويدعون، فأمسوا هم الحكام على الشريعة، ولم تعد الشريعة هى الحاكمة عليهم. ما موقفهم أمام هذه النصوص الزاجرة البينة فى مثل قوله عز وجل: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن**

يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله تعالى:

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾ [المائدة: ٤٥].

﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾ [المائدة: ٤٧].

ولا يقول قائل: إن هذه الآيات إنما جاءت فى شأن أهل الكتاب، فقد جاءت بلفظ عام، والأصل أن العبرة بعموم الألفاظ، لا بخصوص الأسباب.

يؤكد ذلك: أنه لا يتصور أن يحكم الله تعالى - وهو الحكم العدل - على أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بالكفر أو الظلم و الفسوق، إذا لم يحكموا بكتابهم الذى أنزله الله عليهم، ويعفى من ذلك المسلمين إذا فعلوا فعلتهم، ولم يحكموا بكتابهم الذى أنزل عليهم من ربهم.

أيكيل الله تعالى بكيلين: كيل للمسلمين وكيل لغيرهم؟ أم أن عدله واحد مع الجميع، كما قال تعالى يخاطب المسلمين: ﴿**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا**﴾ [النساء:١٢٣].

أم كان كتاب المسلمين أهون عند الله من الكتب الأخرى، حتى إن من أعرض عن الحكم به لا يعاقب بما عوقب به أهل الكتب الأخرى؟

وهذا مردود يقينا، فإن كتاب المسلمين (القرآن) هو أعظم هذه الكتب، الموصوف بالإعجاز، والحفظ والخلود، والشمول، والهيمنة على سائر الكتب، كما قال تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق**

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ – ٥٠].

وما موقف هؤلاء الحكام الذين يدعون أنهم مسلمون ويصلون ويصومون، ولكنهم يعرضون عن حكم الشريعة إذا دعوا إليها، من قبل العلماء والدعاة الإسلاميين والجماعات الإسلامية، وقيل لهم: تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول .. ما موقفهم أمام هذه النصوص المنذرة الهادرة كالرعد، القاصفة كالبرق، الواضحة كفلق الصبح، مثل قوله تعالى في سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[النساء: ٦٠ – ٦٥]

لقد بينت هذه النصوص المحكمة من كتاب الله الكريم، مجموعة أمور تدل على النفاق، منها:

١ – التحاكم إلى (الطاغوت) والطاغوت : كل ما يعظم ويطاع طاعة مطلقة من دون الله تبارك وتعالى، ولذا أطلق على الشيطان، وأطلق على الأصنام المعبودة من دون الله أو مع الله، وأطلق على الكهان الذين يحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله، ويشرعون فى الدين ما لم يأذن به الله، وأطلق على كل من اتخذهم الناس أربابا من دون الله يشرعون لهم ما شاؤوا . ولو كان مناقضا لحكم الله تعالى وأمره.

ومن هنا كان التحاكم إلى فلسفة البشر، وقيم البشر، وأنظمة البشر، وتقاليد البشر، وقوانين البشر – بمعزل عن هداية الله وشرعه – تحاكما إلى الطاغوت ولا ريب. وهذا هو شأن المنافقين: ﴿ **الَّذين يزْعمون أَنَّهم آمنُوا بما أُنزل إليْك وما أُنزل من قبْلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغوت وقدْ أُمروا أن يكْفروا به ويُريدُ الشَّيْطانُ أن يُضلَّهمْ ضلالاً بعيداً** ﴾ .

٢ – الصدود والإعراض عن حكم الله ورسوله إذا دُعوا إليه، وهذا من دلائل النفاق، وخلق المنافقين ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوْا إلى ما أنزل اللَّهُ وإلى الرَّسول رأيْت الْمُنافقين يصُدُّون عنك صُدودا** ﴾ .

٣ – التظاهر بحسن النية وقصد الخير والإصلاح، والحلف على ذلك كذبا وبهتانا : ﴿ **فكيْف إذا أصابتْهم مُّصيبةٌ بما قدَّمتْ أيْديهمْ ثُمَّ جاءُوك يحْلفُون بالله إنْ أرَدْنا إلاَّ إحْسانًا وتوْفيقًا** ﴾ .

٤ – نفى الإيمان نفيا مؤكدا بالقسم على من لم يقبل حكم الله ورسوله مع الرضا والتسليم المطلق : ﴿ **فلا وربِّك لا يُؤْمنُون حتَّىٰ يُحكِّمُوك فيما شجر بيْنهمْ ثُمَّ لا يجدُوا في أنفُسهمْ حرجًا مِّمَّا قضيْت ويُسلِّمُوا تسْليمًا** ﴾

وما موقف هؤلاء الحكام أيضا من هذه الآيات الزاجرة من سورة النور وهى قوله تعالى :

﴿ **ويقُولُون آمنَّا بالله وبالرَّسُول وأطعْنا ثُمَّ يتولَّىٰ فريقٌ مِّنْهُم مِّنْ بعْد ذلك وما أُولَٰئك بالْمُؤْمنين * وإذا دُعُوا إلى الله ورسُوله ليحْكُم بيْنهُمْ إذا فريقٌ مِّنْهُم**

مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٤٧ - ٥١].

تؤكد هذه الآيات ما قررته آيات سورة النساء من نفي الإيمان عمن قال: آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى عن اتباع ما أُمر به، واجتناب ما نُهي عنه، والإذعان لما حكم ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ (بهذا النفي الجازم) ﴿**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ**﴾.

كما تبين الآيات أنهم لا يستجيبون لحكم الله وشرعه إلا فيما كان فيه هوى أو مصلحة لهم: ﴿**وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ**﴾.

ثم تبين الباعث وراء هذا الموقف الذي لا يصدر من مؤمن ﴿**أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾.

ثم تبين الآيات ما يفرضه منطق الإيمان على صاحبه، وهو الإذعان والانقياد والقبول لحكم الله ورسوله بلا تردد ولا تلكؤ: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾.

وبذلك تتوافق هذه النصوص الإلهية كلها: في سورة النساء، وفي سورة النور، وفي سورة الأحزاب، على أن مقتضى الإيمان هو الانقياد المطلق لحكم الله وحكم رسوله، دون ارتياب ولا تبرم، بل مع القبول والرضا، واليقين بأن فيه الخير كل الخير، في الدنيا والآخرة، فليس الإنسان أعلم من ربه بمصالح خلقه:

﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠] ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

وليس الإنسان أبر وأرحم بالعباد من ربهم وخالقهم، الذى هو أبر بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من الوالدة بولدها، وقد سخر لهم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وقد وسع رزقه كل حى منهم، كما وسعت رحمته كل شئ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

● **اضطهاد دعاة الحل الإسلامى:**

وليت الأمر وقف بهؤلاء الحكام المنافقين – عند الإعراض عن حكم الله ورسوله، أو عن شريعة الإسلام، أو عن الحل الإسلامى، بل امتد إلى الوقوف فى وجه كل من يدعو إلى (الحل الإسلامى) وتحكيم شريعة الإسلام فى حياة المسلمين.

والعجيب أن هؤلاء الحكام – وهو غرباء عن الاتجاه الحقيقى لأمتهم – اعتبروا أن ما هم عليه هو الأصل، وهو المشروع، وأن كل من يدعو إلى غيره، إنما يدعو إلى التخريب، وإلى زعزعة الاستقرار، وزلزلة بنيان المجتمع، واتهم بمحاولة (قلب نظام الحكم) إلى غير ذلك من (الاتهامات) المخزونة فى جعبة هؤلاء، والتى سرعان ما تنطلق بها أبواق الإعلام للتشويه، والتشويش على الدعاة الأصلاء المخلصين.

مع أن الواقع يقول بكل وضوح: إن الذى قلب نظام الحكم وحوله من الشريعة الإسلامية التى تؤمن بها الأمة، إلى القوانين والأنظمة الوضعية، المفروضة عليها من خارجها، إنما هو (الاستعمار) الذى كان أول ما فعله حين تحكم فى ديار المسلمين، هو إلغاء أحكام الشريعة الإسلامية، وإحلال قوانينه ومناهجه محلها، كان ذلك بأوامر فوقية من السلطة المستعمرة المهيمنة، ولم يكن بإرادة الشعوب، ولا باختيارها.

وهؤلاء الحكام ورثوا هذه الأوضاع العوج من المستعمر، بعد الاستقلال، وكان مقتضى الاستقلال: أن يتحرروا من آثار الاستعمار التشريعية والثقافية، كما تحرروا من ربقته العسكرية والسياسية، ولكنهم - للأسف - أقروا هذه الأوضاع المنافية لعقيدة الأمة، بل باركوها، وربما وسع بعضهم فى دائرة الانحراف، أكثر مما صنع الاستعمار، فجار على قضايا (الأحوال الشخصية) وشؤون الأسرة، التى كان الاستعمار تركها للشعوب، لخصوصيتها الشديدة، واتصالها بدين الناس، وهويتهم الحضارية.

لو كان هناك قضاء عادل يمثل أمامه هؤلاء الحكام، لتحاكمهم شعوبهم، لكان أول تهمة توجه إليهم: أنهم خانوا شريعة الأمة، وعطلوها عمدا، ومشوا فى ركاب المستعمر، الذين زعموا يوما أنهم حاربوه وطاردوه، وهم اليوم يسيرون فى نفس خطه، ووفق منهجه الذى رسمه.

إن كثيرا من الحكام اليوم كان ينبغى أن يكونوا فى قفص الاتهام، لأنهم أحلوا ما حرم الله، وحرموا ما أحل الله، وأسقطوا ما فرض الله، وشرعوا للناس ما لم يأذن به الله. ولكن الواقع المشهود هو العكس: أن يساق الدعاة إلى الله وإلى شرعه ومنهجه إلى السجون والمعتقلات، بمحاكمات عسكرية غير مقيدة بأصول القضاء الطبيعى وتقاليده، أو بغير محاكمات أصلا عند اللزوم.

وكم رأينا الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار الصحابية، والقواعد الفقهية، توظف - بالباطل - ضد هؤلاء الدعاة الصادقين، الذين سيق بهم إلى المعتقلات، وقذف بهم فى جحيم السجون، وصبت عليهم ألوان العذاب والتنكيل، وسلطت عليهم الكلاب لتنهش من لحمهم، والسياط لتشرب من دمائهم، والآلات الجهنمية لتسحق من عظامهم، ولا جرم لهم إلا أن قالوا: ربنا الله، ومرجعنا الإسلام، ودستورنا القرآن، وقائدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

اتهموا هؤلاء الدعاة بأنهم عصوا (أولى الأمر) منهم، وما عصوا أولى

الأمر، وإنما نصحوا لهم، كما أمرهم الله ورسوله، ودعوهم إلى تحكيم شرع الله لا إلى شئ آخر. والله تعالى يقول: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ [النساء: ٥٩] فكان الواجب عند التنازع مع أولى الأمر فى شئ هو رده إلى الله ورسوله، والرد إلى الله يعنى: الرد إلى كتابه وقرآنه، والرد إلى الرسول، يعنى: الرد إلى سنته ومنهجه، ولكنهم رفضوا الاستجابة إلى أمر الله، ولم يردوا الأمر إلا إلي أهوائهم ومذاهبهم المستوردة من الغرب والشرق.

وأغرب من ذلك: اتهام هؤلاء الدعاة بأنهم يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا، واستشهدوا فى ذلك بآية سورة المائدة التى نزلت فى شأن بعض المرتدين كما يرى بعض السلف، أو فى قطاع الطريق المفسدين فى الأرض، كما يرى جمهور الفقهاء، وهى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

إن مما يندى له الجبين، وتذهب عليه النفس حسرات، وتتقطع له القلوب زفرت: أن نجد هؤلاء الحكام الذين يلبسون لبوس الوطنية، أو يزهون برداء القومية، ينفذون – حرفيا – ما أوصى به أعداء الأمة، وأعداء دينها وتقدمها ووحدتها: من ضرب الدعوة الإسلامية، والصحوة الإسلامية، والحركة الإسلامية، وإيقاف سيرها، أو – على الأقل – تعويق تقدمها ونفوذها وهيمنتها على الجماهير، وخصوصا الشباب المثقف فى الجامعات والمعاهد.

هذا مع أن هذا الشباب المسلم المؤمن بربه، المعتز بدينه، المتآخى على عقيدته، الحريص على المسلك الطاهر النظيف، فى قوله وفعله، ومأكله ومشربه،

ومدخله ومخرجه، ومعاملته مع نفسه ومع ربه، ومع أهله، ومع مجتمعه، ومع الناس أجمعين . . . هذا الشباب هو ثروة طائلة لوطنه، ورصيد هائل لا يقدر قدره فى المعركة الوطنية والقومية مع الأعداء، كما أنه عنصر أساسى وهام فى البناء والتقدم والتنمية . وهو العنصر المأمون الذى يصعب على أعداء الأمة اختراقه عن طريق الخمر أو المخدرات أو النساء، فقد كفاه الله بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عمن سواه .

ولقد كنا نعذر هؤلاء الحكام أيام النفوذ الاستعمارى، الذى كان يتصرف فى أوطاننا ومقدراتها تصرف القيم فى القاصر، أحيانا مباشرة وبصراحة، وأحيانا أكثر من وراء ستار، ونقول : إن هؤلاء القادة والزعماء ليس لهم في الواقع من الأمر شئ وأنهم يؤمرون فيطيعون، ويُدعون فيلبون، ويعتقدون أن إشارة المستعمر أمر ورغبته حكم . فلما ولى الاستعمار وخرج من ديارنا استبشرنا خيرا، وقلنا قد انزاحت الغمة، وتحررت أعناقنا من الأغلال، وأيدينا من القيود، وأرجلنا من السلاسل، وبقينا أحرارا فى بلادنا، نفعل ما نشاء، ونحكم ما نريد .

ولكنا - وا أسفاه ! - وجدنا فى كثير من الأحيان والأحوال أن المستعمر كان أخف وطأة، وأقل جرأة، وأهون شرا من بعض من ورثه من (الحكام الوطنيين) الذين ركبوا ظهر الإسلام حتى ارتقوا سنام السلطة، وتسلموا زمام الحكم، فإذا بهم يتنكرون للإسلام، وينقلبون على شريعته، ويقفون فى وجه دعوته، ويعلنون الحرب الضروس على دعاته، ويتخذون (العلمانية الغربية) شعارا ودثارا لهم، ومرجعية لتفكيرهم وتشريعهم وتعليمهم وسلوكهم . وتفضلوا على الدين فحصروه فى المسجد، وفى الاحتفال بالمناسبات الدينية، التى قد يحضرونها بأنفسهم أو بمندوبيهم، وربما كانت أفواههم لا تزال تشم منها رائحة الخمر .

استوى فى ذلك الحكام المسلمون أو الذين ينتسبون إلى الإسلام فى بلاد العرب، وفى بلاد العجم، من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى، من جاكرتا إلى موريتانيا . كلهم - بعد استقلالهم وتحررهم من الاستعمار الغربى - ساروا فى ركاب هذا الاستعمار، ومشوا فى خطه، ونهجوا نهجه، ونفذوا خططه، وجعلوا

ولاءهم للاستعمار وأهله، ولم يجعلوا ولاءهم لله ولرسوله وللذين آمنوا، على طريقة المنافقين الذين وصفهم الله تعالى في كتابه فقال: ﴿ **بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا** ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩].

وقال تعالى في نفس السورة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١٤٤، ١٤٥].

وبين الله عز وجل جهة الولاء التي يجب أن يتجه إليها الفرد المؤمن، والجماعة المؤمنة، فقال: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦].

واستوى في الموقف من الإسلام: الحكام اليمينيون الليبراليون الديمقراطيون - كما يسمونهم - والحكام اليساريون الثوريون الاشتراكيون.

فقد حكم الليبراليون اليمينيون بعد استقلال أوطانهم، ولم يوالوا الإسلام، واصطدموا بدعاته، وساقوهم إلى المعتقلات والسجون.

ثم سقط هؤلاء وورثهم الاشتراكيون الثوريون اليساريون، فكانوا شرا منهم على الإسلام ودعاته وجماعاته، كانوا أقل رحمة، وأشد نقمة، وأضرى هجمة، كانت ضرباتهم أقسى وأشد إيجاعا، وأكثر وحشية، وأحد أظفارا وأنيابا!.

كانت ضحاياهم أكثر عددا، وتنكيلاتهم أوسع مساحة، وتنكرهم للإسلام أكثر صراحة، بل أبلغ وقاحة، سالت دماء أغزر، وأزهقت أرواح أكثر، وكان أسلوبهم أشرس وأحقر، حتى شووا الجلود، وسحقوا العظام، وأكلت سياطهم اللحوم، وشربت الدماء. حتى النساء الفضليات علقن من أرجلهن في (زنازين)

العذاب، وحتى استخدمت الأساليب اللا أخلاقية فى التنكيل والتعذيب، مما يخجل المرء أن يبوح به أو يذكره صراحة للناس.

وهناك من خروا صرعى تحت أتون العذاب المكثف المستمر، ولقوا ربهم شهداء، ودفنوا فى الصحارى القريبة، بلا غسل ولا تكفين ولا صلاة!

وفى بعض البلاد العربية أخذ مئات - بل آلاف - من الأحرار الشرفاء، واقتيدوا إلى سجون لا يعلم عنها شئ، ولا يزورهم أحد، وأفرج عن بعضهم بعد بضعة عشر عاما، وقد شوه وحطم بدنيا ونفسيا، وعاد خلقا آخر، وبقى آخرون لا يعرف عنهم أهلوهم شيئا: أفى الأحياء هم أم فى الأموات؟ ولو علموا أنهم ماتوا لقالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وسألوا الله أن يأجرهم فى مصيبتهم وأن يخلفهم فيها خيرا. ولكن هذه الحالة التى هى (لا حى فيرجى، ولا ميت فينسى) فهى أشد وأنكى من الموت قطعا.

ومن المآسى التى تذكر هنا أن بعض البلاد كان يحكمها الملوك، فتحولت أنظمتها من ملكية إلى جمهورية، وظن الناس بهذه الجمهوريات الجديدة خيرا، وتصوروا فى بداية الأمر أن الخير سيجرى فى ركابها، وأنها ستطعم الناس من جوع، وستؤمنهم من خوف، وأنهم سيأكلون فى ظلها المن والسلوى أو السمن والعسل، وأنهم سينعمون بالحرية والمساواة والكرامة، وحقوق الإنسان، فإذا هذه الجمهوريات كانت شرا على الشعوب من الملكيات، لم يذق الناس فى عهودها إلا لباس الجوع والخوف، وضاعت حرية الإنسان، وهانت كرامة الإنسان، وأمست شعوب كاملة رهينة بإرادة شخص واحد، يقدس الجميع اسمه، ويسبحون بحمده، وينحنون له، وينفذون أمره، بل إشارته. لا يسأل عما يفعل، ولا يحاسب على ما يعمل، ولا يقول له أحد: لم؟ بله أن يقول: لا!

وكان من مزايا (الجمهوريات) أن رؤساءها يبقون فترة أو فترتين ثم يتغيرون، ولكن الرؤساء فى أوطاننا لا يتغيرون، والدنيا تتغير من حولهم، فهم مفروضون على شعوبهم رغم أنوفها. وإن كانوا يصوغون ذلك فى صورة مطالبات

جماهيرية تطالبهم بالبقاء والاستمرار، وتؤكد ذلك نتائج الاستفتاءات التي يحصلون فيها على ٩٩٫٩٩٪ من الأصوات.

وأعجب من ذلك: أن هؤلاء الرؤساء الذين ابتليت بهم الأمة، قد حولوا هذه الجمهوريات إلى ملكية وراثية بالفعل، وعلى مرأى ومسمع. فكل رئيس يعد ابنه ليكون ولي عهده، ووارث ملكه من بعده، فابن الوز عوام، ومن يشابه أباه فما ظلم. وهكذا عادت كسروية أو قيصرية، لها من القيصر جبروته وسرفه، وليس لها منه جلاله وشرفه، كما قال شوقي رحمه الله.

وبات الناس يترحمون على أيام الملوك، وعهود الملكية، وينشدون قول الشاعر:

رب يوم بكيت منه، فلما صرت في غيره بكيت عليه!

حتى كتب بعض أساتذة العلوم الاجتماعية والسياسية، يقترح على البلاد العربية، أن تستبدل بالأنظمة الجمهورية الحالية: الملكية الدستورية، فقد وجد أنها أحسن حالا، وخير مآلا، من هذه الجمهوريات الحديثة، ذات المخالب والأنياب، التي تعلن (الديمقراطية) وتمارس (الدكتاتورية).

ولقد كان مما يخفف سطوة الوراثة في النظام الملكي الدستوري: أن الملك فيه يملك ولا يحكم، بخلاف هؤلاء (الملوك الجمهوريين) فإنهم يملكون ويحكمون، ويورثون الملك والحكم لذرياتهم!!

وقد قال بعض رؤساء الجمهوريات: إن الديمقراطية قد تكون لها أنياب أحد من أنياب الدكتاتورية. وقد استطاع بهذه الأنياب أن يفترس خصومه، وتحت علم الديمقراطية!

والأعجب من كل ما ذكر: أن تجد بعض الكتاب والصحفيين والإعلاميين قد باعوا أنفسهم بثمن بخس – وربما بلا ثمن – لهذه الأنظمة المتسلطة، يبررون لها سلوكها، ويدافعون عن انحرافاتها وتحريفاتها، ويباركون لها كل اتجاهاتها، يصدقونها إذا ادّعت، ويؤمنون عليها إذا دعت، وينظمون قصائد الإطراء، أو يدبّجون مقالات الثناء، فهؤلاء شر على الأمة من الحكام الجائرين والمستبدين.